12– ابن طيفور – كتاب بغداد تحقيق محمد زاهر بن الحسن الكوثري – مصر 1949م – ص 36.

13– ابن الزبير – الذخائر والتحف تحقيق الدكتور محمد حميد الله – الكويت 1959م – ص 119.

14– ابن طيفور – المصدر السابق – ص 113.

15– السيوطي – تاريخ الخلفاء اعتنى به ونقده وعلق عليه محمود رياض الحلبي – دار المعرفة بيروت 1996م – ص 322

16– الهمداني – تكملة تاريخ الطبري ج1 ط1 – تحقيق ألبرت يوسف كنعان – بيروت 1961م – ص 37.

17– الرطل: هو إثنا عشر أوقية، وهو أكثر وحدات الوزن استعمالا في المشرق، وكان الرطل البغدادي يساوي الر
الشرعي، أنظر المقريزي – شذور العقود في ذكر النقود تحقيق محمد السيد بحر العلوم ط 5– النجف–1967م– ص 193

18– الصابي – تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء – مطبعة الآباء اليسوعيين – بيروت – ص 216/ ابن الجوزي – المنتظ
تاريخ الملوك والأمم – بغداد 1973م – ج6 ص 138.

19– أحمد أمين – ضحى الإسلام – القاهرة 1952م – ج 2 ص 3.

20– الخطيب البغدادي – المصدر السابق – ج 1 ص 5.

21– الجاحظ – البيان والتبين – المطبعة الكاثوليكية – بيروت 1959م – ص60 62.

22– سيد أمير علي – مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي – القاهرة 1963م – ص 72.

23– حسن إبراهيم حسن – تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي – ج2 ص 66.

24– ابن طيفور – المصدر السابق – ص 98.

25– اليعقوبي – تاريخ اليعقوبي – بيروت 1986 – ج ص 147، ابن الأثير – الكامل في التاريخ – ج5 ص 277.

26–المقدسي– أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم – ص104، والمكس: دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق

27– الماوردي – الأحكام السلطانية والولايات الدينية – مطبعة الوطن – مصر 1406م – ص24.

28– الطبري – تاريخ الرسل والملوك تحيق محمد أبو الفضل إبراهيم– مطبعة دار المعارف– القاهرة 1966م–ج8ص 338

29– المقدسي – المصدر السابق – ص 147.

30– ابن خرداذبة – المسالك والممالك – مكتبة المثنى – بغداد ص 154.

31– جورج فضلو حوراني– العرب والملاحة في المحيط الهندي...– القاهرة – 1958م – ص 90.

32– آدم ميتز – الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري– ط2 ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة– القاهرة – ص 120

33– عبد العزيز الدوري – تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري – مطبعة المعارف – بغداد–1968م–155

34– اليعقوبي – البلدان – المصدر السابق – ص 254.

35– بارتولد – تاريخ الحضارة الإسلامية ط3 ترجمة حمزة الطاهر – دار المعارف – القاهرة 1958م – ص75.

36– الثعالبي – لطائف المعارف تحقيق إبراهيم الأنباري – دار إحياء الكتب العربية – مصر 1960م – ص 22.

37– ياقوت الحموي – معجم البلدان دار بيروت – بيروت 1998م – المجلد الخامس – ص 192 193.

عبد المؤمن بن علي في مدرسة ابن تومرت العلمية والدينية والحربية

(511 - 524 هـ / 1118 - 1130م) الجزء الأول

د.محمد بن معمر*

1 - *اللقاء التاريخي بين المهدي وعبد المؤمن بملالة*

أ- طابع اللقاء: إن اللقاء التاريخي الذي جمع ابن تومرت بعبد المؤمن في ملالة يعتبر واحدا من أهم الأحداث وأبرزها في رحلة عودة المهدي من المشرق، ومردّ ذلك إلى ما آلت إليه دعوة ابن تومرت من خلال تكوين دولة الموحدين ودور عبد المؤمن الأساسي في ذلك.

ويظهر اهتمام المؤرخين بهذا الحدث من خلال ما أضفاه بعضهم عليه من طابع أسطوري خيالي وجعله من مظاهر السّر الأزلي الذي انكشفت رموزه وفي مقدّمة هؤلاء البيذق الذي أورد قصة اللّقاء في قالب خيالي بسيط لكنه لا يخل؛من عنصر الإثارة والتشويق[1].

وإذا استثنينا الجانب الأسطوري الخيالي في هذه الرّوايات التاريخية وغضّينا عنه الطرف وتعاملنا مع الموضوع بصفة علمية دقيقة متأنية ومتفحصة، وجدنا أن اللّقاء التاريخي الذي جمع بين الرّجلين ما هو إلاّ خطوة ضمن مشروع إصلاحي وسياسي رسمه المهدي بن تومرت لنفسه والمتمثل في قلب نظـــام المرابطـــين القائم وتغيير جوانبه السياسية والإجتماعية، لأن

---

*أستاذ تاريخ المغرب الإسلامي بقسم الحضارة الإسلامية- جامعة وهران.

المهدي لم يرتحل إلى المشرق إلاّ وهو يحمل في رأسه فكرة الثورة على الواقع المغربي وخاصة ميدان الإجتماع[2].

ولعل مشروعا كهذا كان يحتاج إلى رجال أقوياء يعملون على تنفيذه، ويتحملو الصّعاب والمشاق في سبيل تحقيقه، وهو الأمر الذي كان يدركه المهدي تمام الإدراك. فشر في اختيار الرّجال الأكفاء والسّواعد القوية التي تشد أزره فشاءت الأقدار أن يكون عب المؤمن أول هؤلاء.

ومن النصوص التاريخية التي تؤكد ذلك، ما أورده البيذق قائلا: "فكان الطلبة يقرأو العلم فإذا فرغوا جلس بين الطرق تحت خروب العجوز وهو أبدا ينظر للطريق ويحرك شفت بالذكر"[3].

وفي نفس السياق ذكر ابن خلدون أنه"كان يجلس إذا فرغ على صخرة بقارعة الطري قريبا من ديار ملالة"[4]. أي أن الاستقرار النسبي الذي أحس به المهدي في ملالة هو الذ دفعه إلى الشروع في اختيار رجال المستقبل، وإذا به يعثر على عبد المؤمن الذي سيكون ل الشأن الأكبر في نشر دعوة ابن تومرت وإقامة دولة الموحدين. ولأن عبد المؤمن كان أو تلك السّواعد التي شرع المهدي في اختيارها جاء الجانب الأسطوري الخيالي في الرّواي التاريخية ليضفي على اللّقاء طابعا خاصا.

ولكن الحقيقة هي أن اختيار عبد المؤمن جاء نتيجة فراسة ابن تومرت ومعرفته بعوال الرّجال لا من الأسرار الغيبية، وهذا ما أشار إليه بوضوح ابن الأثير بقوله: "فلقي بملالة ع المؤمن بن علي فرأى فيه من النجابة والنهضة ما تفرس فيه التقدم والقيام بالأمر"[5]. وأك ذلك ابن خلدون قائلا:"وكان يؤمله لخلافته لما ظهر عليه من الشواهد المدونة بذلك"[6]. وا أبي زرع أيضا بقوله: "ولقيه عبد المؤمن فانضاف إلى خدمته وعلم بمراده وما قصد إليه م طلب الخلافة فوافقه على حاله وتبعه في أمره وبايعه على مؤازرته في الشدة والرّخاء والعس واليسر والأمن والخوف"[7]. هكذا بيّنت النصوص الثلاثة بوضوح أن المهدي قد وجد في عبد المؤمن المؤهلات اللاّزمة والكافية التي رشحته لخوض معركة المستقبل والتي من أجلها فاوضه المهدي على ما يعتزم القيام به فوافقه عبد المؤمن وبايعه على المؤازرة في العسر واليسر.

ب- سبب *اللقاء* : بالنسبة للسبب الذي كان من وراء لقاء ابن تومرت وعبد المؤمن وردت هناك روايتان تاريخيتان حول الموضوع. أمّا الرّواية الأولى فقد انفرد بها ابن القطان وأيّده في ذلك ابن خلدون ومفادها أن عبد السلام التونسي أحد كبار فقهاء تلمسان والمدرّس بجامعها، ترك بعد وفاته فراغا كبيرا أحسّ به الطلبة؛ فانتدبوا عبد المؤمن بن علي للقيام بمهمة استقدام ابن تومرت من بجاية بعدما ذاع صيته وشاع خبره ليستخلف التونسي.

أمّا الرّواية الثانية والتي ذكرها أغلب المؤرخين كالبيذق والمراكشي وصاحب الحلل الموشية فإنّهم يتفقون على أن عبد المؤمن كان متوجها رفقة عمّه إلى المشرق لآداء فريضة الحج وطلب العلم، وعند وصولهما إلى بجاية لركوب البحر وقع اللّقاء الذي ذكرته مصادر التاريخ.

وعلى الرغم من أن الرّواية الأولى قد انفرد بها مؤرخ واحد هو ابن القطان[8] سيما وأن ابن خلدون قد عاد في موطن آخر[9] من تاريخه وذكر الرّواية الثانية أيضا، فإنّ بعض المراجع الحديثة قد رجّحت رواية ابن القطان واعتبرتها الأقرب إلى المعقول من تلك الرّواية التي اصطنعها البيذق الذي لا يستند رأيه على أسس من الوثائق حسب قولها. ومن أصحاب هذا الرأي هويسي ميرندا في تاريخ الموحدين السياسي وعبد المجيد النجار في المهدي بن تومرت، في حين رجّح رشيد بورويبة الرّواية الثانية. ومهما كان من أمر الرّوايتين فالتوفيق بينهما لا يؤدي إلى تناقض وكل ما بينهما من فرق أن الرّواية الثانية تحاول أن تساوي عبد المؤمن بابن تومرت في رحلته إلى الشرق طلبا للعلم.

ج- *مكان وزمان اللّقاء:* باستثناء كل من ابن أبي زرع الذي جعل التقاء الرّجلين في تاجرا مسقط رأس عبد المؤمن والمراكشي الذي جعله في قرية فترارة[10] من قرى متيجة، بقية المؤرخين يتفقون على أن اللقاء تمّ بملالة وهي قرية صغيرة تقع على بعد 5كلم جنوب غرب بجاية، ومن هؤلاء المؤرخين البيذق وابن القطان وابن الأثير وابن خلدون والنويري وصاحب الحلل الموشية وابن خلكان. وعن زمن اللّقاء فإن المصادر التاريخية لا تذكر التاريخ بشكل محدّد ولكن حسب ابن القطان فإن المهدي وصل بجاية سنة 511هـ/1118م، وذكر ابن خلدون سنة 512هـ/1119م.

2- اهتمام المهدي المبكر بعبد المؤمن وتمييزه له عن بقية الأصحاب:

بعد الإقامة في ملالة والتي دامت بضعة أشهر حيث أحسّ المهدي بالإستقرار النسبي و اختار عبد المؤمن لصحبته، قرّر مواصلة الرحلة متجها إلى مسقط رأسه بالمغرب الأقصى، وقد جاءت تفاصيل هذه الرّحلة عند البيذق. وفي طريقه لم يكن ليغفل ما شرع في القيام به، وهو اختيار الرّجال حيث اصطحب معه إلى جانب عبد المؤمن عبد الواحد الشرقي من ملالة والونشريسي عبد الله بن محسن المعروف بالبشير من ونشريس، وما إن وصل إلى فاس حتى كان بصحبته سبعة من الرّجال ذكرهم البيذق وهم عبد المؤمن وعبد الواحد الشرقي والحاج عبد الرحمن والحاج يوسف الدكالي والبيذق وعمر بن علي وعبد الحق بن عبد الله وأغفل ذكر البشير.

وقد ظهر اهتمام المهدي المبكر بعبد المؤمن وتمييزه له عن بقية الأصحاب وهم في طريق العودة إلى المغرب الأقصى. وقد وردت بعض الإشارات التاريخية في هذا الصّدد سيما عند البيذق الذي كان يدوّن خط الرّحلة بكل تفاصيلها. وقد جاءت إشارات البيذق هذه لتصوّر المهدي على أنّه رجل يعلم غيب المستقبل من خلال ما صدر عنه من تصرفات وجدت صداها نبوءتها عندما أصبح عبد المؤمن أميرا.

ومن تلك التصرفات أنّه لما أصاب عبد المؤمن التعب ولم يقدر على المشي، أمر ابن تومرت عبد الواحد الشرقي أن يترك له الدّابة ليركبها وأن يسير هو على قدميه، ولكن عبد الواحد تلكّأ كأنّه لم يرض بذلك، فقال له المهدي:"يا عبد الواحد طيّب نفسك فلقد يجازيك عليها بالقصور المشيدة والجواري المزينة والخيول المسومة"[11]. ومنها أيضا أن شيخا اسمه يوسف بن عبد العزيز حلّ عليه المهدي وأصحابه ضيوفا بالبطحاء شمال غليزان فأكرم وفادتهم لمدّة ثلاثة أيام في كل يوم يذبح لهم كبشا يختارونه بأنفسهم، ولما انتهت أيام الضيافة أُعجب المهدي بكرم الرّجل فطلب منه قطعة جلد لفّ فيها ورقة مكتوبة وقال له:"يا شيخ أمسك هذا عندك فإن متّ يكن عند بنيك فإنّه خير لك ولعقبك حتّى يصل إلى هذا الموضع ملك وعسكر فادفع البراءة من يديك ليد الملك ولا تعطيها أحدا غيره"[12].

والمقصود بالملك هنا طبعا هو عبد المؤمن. وفي نفس الموضوع يذكر البيذق أنّهم لما وصلوا إلى أمليل سأل المهدي عن إسم المكان وهي قرية بين تازا وفاس فأخبروه عن إسم الموضع فقال لعبد المؤمن اعقل على هذا الموضع لا بدّ لك أن تركز عليه إن شاء الله. وفي نفس السّياق ذكر ابن خلدون في معرض حديثه عن قبيلة كومية أن المهدي وأصحابه لما اجتازوا في طريقهم إلى المغرب بالثعالبة من بطون العرب قرّبوا إليه حمارا فارها ليركبه إكراما له ولكن المهدي كان يؤثر به عبد المؤمن ويقول لأصحابه اركبوه الحمار يركبكم الخيول المسومة[13]. ولا غرابة في اهتمام المهدي المبكر بعبد المؤمن فهو صاحب نظرة بعيدة ولعله اقتنع بأنّ أنسب الرّجال لخلافته هو عبد المؤمن فجاء هذا الاهتمام والتمييز بمثابة الإعداد والتهيئة لأمر الخلافة.

3 - اشتراك عبد المؤمن مع المهدي في مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن القارئ لحياة محمد بن تومرت أثناء عودته من المشرق كما يرويها البيذق وابن القطان والمراكشي يجدها في مجموعها عبارة عن معلومات تدور كلّها حول أعمال الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر تصدّى المهدي لعملها، وإن جاء البعض منها مبالغا فيه فإنّها تعطينا الصو الواضحة التي دخل بها المهدي التاريخ، وهي صورة آمر بالمعروف ناه عن المنكر طا للظهور والجاه بمعارضة السلطة الحاكمة وإثارة الشغب. وهي بداية مناسبة لما رسمه لنفسه اجتذاب الأنظار والظهور بمظهر مصلح ديني وثائر على واقع المجتمع وما يحدث فيه م مخالفات للدّين. وفي طريق العودة من الإسكندرية إلى مسقط رأسه بالمغرب الأقصى كا المهدي يجدّ في تغيير المنكر مركزا على عيبين أخلاقيين يبدو أنّهما كان متفشيين بالمغرب و اختلاط الرّجال بالنّساء، ومعاقرة الخمر ومايصحبها من لهو وطرب[14].

ففي بجاية فرّق بين النّساء والرّجال بالعصا يوم عيد الفطر، وأهرق الخمر بنفس المدين وَفي تلمسان وجد زفافا فيه أصناف من اللّهو فنهى عن ذلك وكسّر الدّفوف. وفي وجدة م اختلاط الرّجال بالنساء عند الساقية العامة وأمر ببناء ساقية وصهريج عند الجامع للوضو وفي صاء منع بعض النسوة من الزينة كن يبعن اللّبن واعتبر ذلك منكرا دعا إلى تغييره. وفي الجملة فإنه ما حلّ بمكان في طريقه إلاّ ونهى عن منكر وجده أو أمر بمعروف.

وكان يرافق المهدي في مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصحابه وعلى رأسهم عبد المؤمن الذي كان يقرّ أعمال أستاذه وتصرفاته كلّها دون أن يعارضه في أي منها أ يسجّل تحفظا حولها. بل إن المهدي كان يستأنس بأصحابه في عمله هذا ويشكرهم في تغ المنكر عندما كان يتطلب الأمر أكثر من شخص.

ومن ذلك ما رواه البيذق عندما دخل المهدي وأصحابه إلى فاس، وفي يوم من أيام إقامته بها يقول البيذق إنّه دخل عليهم ابن تومرت وقال لهم أين الصّبيان – يقصد أصحابه وكانوا سبعة نفر فأجابوه وتأكّد من حضورهم جميعا فأمرهم بالخروج إلى أسفل الوادي و يقطعوا مقارع من شجر التين ويخفوها ثم ساروا معه وهم لا يعلمون إلى أين يتجه المهدي إ أن وصلوا إلى زقاق بزفالة عندها أمرهم بأن يتفرقوا على الحوانيت المملوءة بالدفو

والقراقر والمزامير والعيدان والكيتارات وأن يكسروا جميع أدوات اللّهو هذه، وفعلوا ما أمرهم به رغم صراخ أرباب الحوانيت وذهابهم إلى القاضي ابن معيشة يشكون المهدي وأصحابه إلاّ أنّ القاضي أقرّ عمل المهدي واعتبره على حق وأن أصحاب الحوانيت هم المخالفون[15].

وإذا كان ابن تومرت قد وجد من قاضي فاس مساندة في عمله هذا، فإنّه كان في كثير من الأحيان يجد عنتا ومعارضة ممّن نهاهم عن المنكر وقد يتحول الأمر إلى تحرش وتهديد أو مشاجرة قد يحسن الإفلات منها ولكنه كان يقع أحيانا في قبضة العوام مثلما حدث بمكناس حيث نهى بها عن بعض المناكير فأوقع به الشرار من الغوغاء وأوجعوه ضربا كما يقول ابن خلدون[16] وهي الحادثة التي أغفلها البيذق رغم تفصيله للأحداث.

وعلى العموم فإن المرحلة التي قطعها المهدي رفقة أصحابه من ملالة إلى مراكش والتي دامت من 511هـ إلى 514هـ، كانت مرحلة مليئة بالصّعاب والمغامرات بسبب ما كان يقدم عليه المهدي من تغيير للمنكر. وقد كان لعبد المؤمن نصيب من ذلك كلّه مثلما حدث في قصة عبور وادي أبي الرّقراق التي أوردها المراكشي على لسان عبد المؤمن نفسه. ومفادها أنه ثلاثة أشخاص وهم ابن تومرت وعبد الواحد الشرقي وعبد المؤمن ولا شيئ لهم سوى رغيف خبز طلبوا من صاحب القارب أن يعبر بهم الوادي مقابل هذا الرغيف، فاشترط عليهم أن يعبر باثنين فقط هما ابن تومرت وعبد الواحد الشرقي، بينما عبر عبد المؤمن الوادي سباحة وكان كلّما أعيته السباحة دنا من القارب ليضع عليه يده ليستريح ولكن صاحب القارب كان يضربه بالمجذاف حتى يؤلمه، فما بلغ البرّ إلاّ بعد جهد شديد.

وبعد الوصول إلى العاصمة مراكش مقر السلطة المركزية فإن وتيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد عرفت منعطفا جديدا ودخل بذلك المهدي وأصحابه مرحلة مهمة في حياتهم، ذلك أن مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يصبح مقتصرا على عامة الناس

كما جرت العادة في بجاية ومتيجة وتلمسان وفاس ومكناس وسلا وغيرهما من إراقة الخم وكسر آلات الطرب. بل إنّ المهدي أصبح أكثر جرأة ولم يخش السلطة أو رجالها حين اقتحم دائرة الحكام وحواشيهم يأمرهم وينهاهم، فهو رجل مغامر يطلب الكثير ويهون عنده الكث في سبيل ذلك، فقد عمل على إثارة غضب رجال الدّولة واستفزازهم حتى يتعرضوا ل بالحبس والأذى والطرد ومن ثم يزداد صيته ويكثر جمعه.

وكانت البداية أنّه لما رأى أخت الأمير المرابطي علي بن يوسف مع جواريها سافرات أمرهن بستر وجوههن وضرب هو وأصحابه دوابهن حتى سقطت أخت الأمير عن داب فشكته لأخيها. وفي صلاة الجمعة وعظ الأمير علي بن يوسف نفسه وأغلظ له القول وذل أنّه لما دخل الأمير المسجد قام له المصلّون جميعا إلاّ المهدي فقد لازم مكانه. وبعد الصّلاة سل عليهَ وقال له: "غيّر المنكر ببلادك لأنّك أنت المسؤول عن رعيتك"، فلم يجبه وأمر بأن تقض حاجته فأجاب المهدي بأن لا حاجة له وما قصده إلاّ تغيير المنكر[17].

وكان أكثر رجال الدّولة إدراكا لخطورة المهدي وما يعتزم القيام به هم الفقهاء باعتباره أصحاب السلطة الفعلية في البلاد وعلى رأسهم كبيرهم مالك بن وهيب حين نصحوا الأم بقتله أو سجنه، فقال له مالك بن وهيب هذا الرّجل اجعله في بيت من حديد وإلاّ فستن عليه بيتا من ذهب. وقالوا له أيضا اجعل عليه كبلا قبل أن يسمعك طبلا. وعلى الرّغم أن الأمير المرابطي تهيّب أن يقتل رجلا لا يقول إلاّ حقا وآثر التأني وعدم التسرع، المهدي أدرك خطورة مالك بن وهيب وأنّه قد ينجح في إقناع الأمير بالقتل، ولذلك ق مغادرة العاصمة مراكش قائلا لأصحابه: "لا مقام لنا بمراكش مع وجود مالك بن وهيب فغادرها إلى أغمات ومنها إلى السّوس مسقط رأسه حيث سيشرع في وضع أسس تقوي النظام المرابطي.

ما يمكن استنتاجه من رحلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هاته التي قطعها المهدي من ملالة إلى مراكش، أن عبد المؤمن كان ملازما لأستاذه يراقبه في حركاته وسكناته ويشاركه في مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويتعلّم منه كل كبيرة وصغيرة مستغلا تقريب المهدي له وتميزه عن بقية الأصحاب. وإذا نظرنا إلى سن عبد المؤمن في هذه المرحلة فإنها كانت تتراوح ما بين 17 و20 سنة وهي السّن التي يكون فيها التلميذ أكثر تعلقا بأستاذه وأكثر انقيادا وانصياعا له.

وتعتبر هذه المرحلة من المؤثرات الأساسية في شخصية عبد المؤمن وهو الأمر الذي نلمسه فيه عندما يصبح خليفة للموحدين. ففي سنة 543هـ بعث عبد المؤمن برسالة مفصلة من إنشاء كاتبه أبي جعفر بن عطية إلى طلبة وأعيان وشيوخ وعامة أهل الأندلس وقد أوردها ابن القطان تحت عنوان: أمره رضي الله عنه بالمعروف ونهيه عن المنكر وعدله ونهجه مناهج الحق وفضله.

وقد وردت في الرّسالة أوامر ونواه كثيرة لا يتسع المجال لذكرها ولكن نقتصر على أمر واحد فقط كنموذج وهو محاربة الخمور، وهو المنكر الذي بالغ المهدي في محاربته أثناء عودته من المشرق كما رأينا. وقد جاء في الرّسالة: الله الله في البحث على الخمور وتقديم النظر في أمرها فهو من أهم الأمور فإنّها مفتاح الشرور ورأس الكبائر والفجور وهي رابطة أهل الجرم وجامعة أشتات الظّلم، اجتهدوا في إراقتها وكسر دنانها...[18]

إن شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي حمل لواءه المهدي بن تومرت في أوساط العامة أولا ثم اقتحامه دائرة الحكام ورجال الدّولة يأمرهم وينهاهم ليتحول بعد ذلك إلى محاربتهم بحدّ السيف، لم يسعفه الأجل في تحقيق حلمه ولكن شاء القدر أن يتحقق هذا الحلم على يد خليفته عبد المؤمن الذي قوّض أركان النظام المرابطي وأسس دولة الموحدين.

وفي ذلك يقول العلامة جولد سيهر في مقدمته الفرنسية لكتاب أعز ما يُطلب: "وقد كان شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلمة تجمّع لثورات أسر في المشرق وكذلك في افريقية الشمالية التي كانت دائما مهادا خصبة لأولئك الذين يريدون إقامة صرح سياسي فوق أسس دينية، ولم تكن بين هذه ثمة حركة لا في أوائلها ولا في تقدّمها تضارع في اتساع نطاقها تلك الثورة التي أدّت في أعوام قلائل إلى طرد المرابطين وتأسيس الإمبراطورية الموحدية القوية في اسبانيا وشمال أفريقيا"[19].

4 – تكوين عبد المؤمن العلمي من خلال ملازمة المهدي:

لقد نشأ عند المؤمن طالب علم متواضعا محبا للقراءة والدّرس منذ البداية، يلازم المساجد لتلاوة القرآن ويعمل على التقدم في هذا الميدان. وكان حلمه الكبير ه؛السّفر والإرتحال إلى الشرق طلبا للعلم والتبحر في علوم الدّين واللّغة تأسيا بمشاهير علماء المغرب الذين سبقوه في هذا المجال، كما كان هذا حلم والده أيضا.

وقد رأينا السبب الذي كان من وراء لقاء ابن تومرت بعبد المؤمن وكيف أن الرّواية التاريخية اختلفت حول الموضوع وانقسمت في ذلك إلى اتجاهين، وبغض النظر عن صحة أو قوة اتجاه دون آخر، فإن الدّافع الذي كان من وراء ذهاب عبد المؤمن إلى بجاية أين تمّ اللّقاء بينهما، كان دافعا علميا بالدّرجة الأولى أي الرّغبة في التعلم ومتابعة الدّرس.

فالرّواية الأولى تقول أن طلبة تلمسان لما افتقدوا شيخهم عبد السلام التونسي انتدبوا عبد المؤمن للذهاب إلى بجاية من أجل إقناع المهدي بالمجيء إليهم وهذا ما أورده ابن خلدون حين يقول: "ولما نجم عبد المؤمن فيهم وشبّ ارتحل في طلب العلم فنزل تلمسان وأخذ عن عبد السلام التونسي وكان فقيها صالحا ولما هلك ولم يحذق تلميذه بعد في فنونه تعطش التلميذ بعده إلى القراءة وبلغهم خبر الفقيه محمد بن تومرت ووصوله إلى بجاية...فارتحل إليه للقائه وترغيبه في نزول تلمسان"[20].

أما الرّواية الثانية التي ذكرها أغلب المؤرخين فهي خروج عبد المؤمن رفقة عمّه باتجاه المشرق لأداء فريضة الحج وطلب العلم والتبحر فيه.

إذاً فكلا الرّوايتين تتفقان على أن الهدف الذي خرج من أجله عبد المؤمن، سواء رفقة عمّه أو كموفد من طرف طلبة تلمسان، هو الرّغبة في التحصيل العلمي لا غير، وهو الهدف الذي ساقه إلى ذلك اللّقاء التاريخي بالمهدي. وما أن اتصل به حتى آنس فيه المهدي النجابة والذكاء والإقبال على العلم بشغف فاستطاع اقناعه بالبقاء إلى جانبه ليتعلم على يديه ويساعده على ما هو عازم القيام به، فيوفر عليه المهدي بذلك الكثير من الجهد والوقت والمال في سبيل طلب العلم إلى المشرق، ولكن في الحقيقة ما سيتحمله عبد المؤمن مع المهدي فيما بعد هو أضعاف ما كان سيحدث له في سبيل طلب العلم لو ذهب إلى المشرق.

وبعد اللقاء التاريخي المعروف لازم عبد المؤمن ابن تومرت وبقي إلى جانبه يطلب العلم على يديه بكل إخلاص ويتفانى في خدمته وينفذ كل ما يأمره به سيما وأنّ عبد المؤمن قد وجد في المهدي ذلك العالم الذي يشبع نهمه ويمدّه بكل ما يحتاج إليه ويعوضه عن تلك الرحلة المشرقية التي ملكت عليه نفسه، وفي المقابل كان عبد المؤمن موطن ثقة بالنسبة لإبن تومرت الذي أودعه أسراره.

وهذا ما أشار إليه ابن خلدون حين قال: "وعكف عبد المؤمن على التعليم والأخذ عنه في ظعنه ومقامه وارتحل إلى المغرب في صحابته وحذق في العلم وآثره الإمام بمزيد الخصوصية والقرب بما خصه الله به من الفهم والوعي للتعليم حتى كأنه خالصة الإمام وكبير صحابته"[21].

إن كلمة الأخذ عنه في ظعنه ومقامه الواردة في نص ابن خلدون تبين بجلاء مدى ملازمة التلميذ لأستاذه والحرص على طلب العلم بين يديه وايمانه العميق بمبادئه والصّدق في دراستها. ويبدو أن أهم العلوم التي درسها عبد المؤمن على أستاذه ابن تومرت وتظلّع فيها هي علوم العقيدة والحديث وأصول الدّين والفقه وأصول الجدل مع اللّسان العربي وهي

العلوم ذاتها التي ملك المهدي ناصيتها وتبحر فيها خلال رحلته المشرقية لقلة نفاق سوقها بالمغرب.

وقد استوى في الشهادة بالتبريز للمهدي في هذه العلوم المعتدلون فيه من المؤرخين والمتحاملون عليه. فابن خلدون وصفه بأنه بحر متفجر من العلم، وابن الأثير قال عنه إنه فقيه فاضل عالم بالشريعة حافظ للحديث عارف بأصولي الفقه والدّين متحقق بعلم العربية[22]. في حين ذهب ابن أبي زرع إلى وصفه بأنّه أوحد عصره في علم الكلام، وعلوم العقيدة، والجدل والفقه، راو للحديث، حافظا له، عالم بالأصول له لسان وفصاحة. وقد ظهر تفوق المهدي في هذه العلوم وكشف عن علو كعبه في فنونها من خلال تلك المناظرات التي أجراها مع فقهاء المرابطين إذ كان يفحمهم وينتصر عليهم في أي مجلس يجمعه بهم.

ومن المدن التي جرت فيها مناظرة المهدي لهؤلاء الفقهاء مدينة فاس وفي ذلك يقول المراكشي "وكان جلّ ما يدعو إليه علم الاعتقاد وكان أهل المغرب ينافرون هذه العلوم فجمع والي المدينة الفقهاء وأحضره معهم فجرت له مناظرة كان له الظهور فيها لأنّه وجد جوّا خاليا وألفى قوما صياما عن جميع العلوم النظرية خلا علم الفروع"[23]. وكان ردّ فعل الفقهاء هو الاشارة على الوالي ونصحه بإخراج المهدي من المدينة لأنّه مفسد لعقول العوام.

وفي مراكش جرت المناظرة الكبرى بحضرة الأمير المرابطي على بن يوسف بين المهدي والفقهاء المرابطين وعلى رأسهم كبيرهم مالك بن وهيب ليختبروا ما عنده من علم، ولكن تفوق المهدي في أساليب الجدل التي اكتسبها من المشرق وتفوقه في علم الأصول أنهى المناظرة لصالحه وقطع فقهاء المرابطين وظهر عليهم وقهرهم، فأشاروا على الأمير بحبسه أو قتله حسدا من عند أنفسهم. فاظطر إلى مغادرة مراكش متوجها إلى مدينة أغمات التي استأنف فيها مهمة التدريس والوعظ كما جرت بها مناظرة أخرى بينه وبين فقهائها انتهت أيضا لصالحه.

ولعل المستفيد الأوّل من هذه المناظرات وما عرفته من مستوى علمي رفيع ونقاش فلسفي حاد هو تلميذ المهدي الوفي وأكثر الناس تعلقا به ألا وهو عبد المؤمن الذي كان يتابع كل شيء ويحرص على ألاّ يفوته شيء. وقد جاءت هذه المناظرات بالنسبة له بمثابة العمل التطبيقي لما كان يتلقاه عن أستاذه من علوم نظرية، وقد ظلّ عبد المؤمن ملازما لابن تومرت بنفس الصورة بعد مغادرة أغمات والاتجاه نحو بلاد السّوس والاستقرار بها إلى غاية وفاة المهدي.

وإذا كانت وفاة المهدي قد حرمت عبد المؤمن من الاستزادة العلمية ومواصلة الدّرس بين يدي أستاذه والاستفادة منه، فإنها فوق ذلك قد ورّثته حملا ثقيلا وهو عبء الخلافة وما تطلبه من جهد عسكري وسياسي، والذي جاء ليأخد جلّ وقته على حساب تحصيله العلمي. ولكن بالرّغم من غلبة الحرب والجهاد على حياة عبد المؤمن، فإنه ظل محافظا على سماته وخلاله العلمية، بفضل ذلك الرّصيد العلمي الهائل الذي حصله من مدرسة ابن تومرت العلمية.

وقد شهد له بذلك ابن أبي زرع حين قال: "كانت ولاية عبد المؤمن حسنة وسيرته جيدة لم يكن في ملوك الموحدين مثله أحسن عطية ولا فروسية ولا دينا ولا أكثر علما منه، كان فصيح اللسان نبيها عالما بالجدل فقيها في علم الأصول حافظا لحديث النبي (ص) متقن الرواية، مشاركا في كثير من العلوم الدينية والدنيوية إماما في النحو واللغة والأدب والقراءات ذاكرا للتاريخ وأيام الناس"[24].

وإلى جانب هذه المواصفات العلمية الخاصة بشخصية عبد المؤمن فإنه كان محبا للعلماء مؤثرا لهم مقبلا على مجالستهم محسنا إليهم يستدعيهم كما قال المراكشي من سائر البلاد ليسكنوا بالحضرة إلى جواره وينتظموا في مجلسه ويجري عليهم الأرزاق الواسعة وينوه بشأنهم ومكانتهم ويكن لهم كل الاحترام والتقدير.

كما اقدم عبد المؤمن أيام ولايته على مواصلة الثورة التجديدية في الفقه والعودة به أصوله متأسيا بأستاذه المهدي، إذ حاول ردّ الناس إلى كتب الحديث الأصلية لاستنبا الأحكام منها مباشرة وفي ذلك يقول السلاوي:"ولما كانت سنة 550هـ أمر أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي بإحراق كتب الفروع وردّ الناس إلى قراءة كتب الحديث واستنباط الأحك منها وكتب بذلك إلى جميع طلبة العلم في بلاد المغرب والأندلس"[25].

ولكن عبد المؤمن تراجع عن أمره ولم يتابعه بالتنفيذ، فلم تحرق في عهده كتب الفرو كما أمر، خشية أن يثور علماء المالكية الذين كان نفوذهم لا يزال مستحكما في نفو الكثير من المغاربة، إلى أن جاء حفيده المنصور وأقبل على الخطوة الحاسمة في هذا الشأن.

5- بيعة المهدي ودور عبد المؤمن في ذلك:

لقد نجح المهدي في الإفلات من قبضة الأمير المرابطي الذي حرّضه الفقهاء على النيل م واستطاع أن يصل إلى أحضان قبيلته هرغة ويلقي عصا التسيار في مسقط رأسه بإيجلي. و أن حلّ بقريته حتى أحسّ بالأمن والإستقرار والمنعة فشرع في الدّعوة إلى أفكاره وبدأ أتباع يتكاثرون يوما بعد يوم وهو الأمر الذي حتّم عليه التفكير في إيجاد الوسائل السياسية التي م شأنها تنظيم المجتمع الجديد الذي سيحل محل النظام القائم بعد الثورة عليه والعمل على إزالته.

وكان أوّل عمل بادر به هو المهدية التي تعتبر من الوسائل الهامة لكسب الأنصار، غير ا الإعلان عنها دون سابق تمهيد أمر غير مضمون النتائج فقد تستعصي الفكرة على عقول العامة مما تطلّب من ابن تومرت التحضير والتمهيد قبل الإعلان عنها.

وهذا ما أشار إليه المراكشي حين قال:"وجعل يذكر المهدي ويشوّق إليه وجمع الأحاديث التي جاءت فيه من المصنفات فلما قرّر في نفوسهم فضيلة المهدي ونسبه ونعته ادّعى ذلك لنفسه وقال أنا محمد بن عبد الله ورفع نسبه إلى النبي(ص) وصرّح بدعوى العصمة لنفسه وأنّه المهدي المعصوم حتى استقر عندهم أنّه المهدي فبايعوه[26].

وهناك شبه إجماع لدى المؤرخين على أن البيعة تمت في رمضان سنة 515هـ بإيجلي مسقط رأس ابن تومرت. وقد تمت في موكب مشهود حضره الأتباع تحت شجرة خروب تأسيا بفعل النبي عندما بايعه أصحابه بيعة الرّضوان تحت الشجرة وقد قام ابن تومرت في الجمع فقال:

"الحمد لله الفعال لما يريد القاضي بما يشاء لا رادّ لأمره ولا معقب لحكمه وصلّى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدي الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا، يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور، مكانه المغرب الأقصى وزمنه آخر الزمان وإسمه اسم النبي(ص) ونسبه نسب النبي(ص) وقد ظهر جور الأمراء وامتلأت الأرض بالفساد وهذا آخر الزمان والإسم الإسم، والنسب النسب والفعل الفعل"[27].

وبعد انتهاء ابن تومرت من خطبته قام إليه عبد المؤمن يرأس بقية أصحابه العشرة فقال له: "هذه الصفة لا توجد إلاّ فيك فأنت المهدي"، وكان أوّل المبايعين له ثم تبعه أفراد جماعة العشرة ثم سائر من حضر من الأنصار من مختلف القبائل.

وقد يكون قيام عبد المؤمن ليتقدم المبايعين تدبيرا مسبقا تمّ بينه وبين المهدي حتى يعطي للبيعة المصداقية اللازمة سيما وأنّ الجميع كان يدرك مكانة عبد المؤمن عند المهدي ومدى حبّه وتقديره له. وأيا كان الدّافع من وراء تصدّر عبد المؤمن للمبايعين فإنّه بعمله هذا قد حقّق للمهدي أسمى آمانيه.

وبهذا الإعلان يكون المهدي قد خطا خطوة عظيمة نحو النجاح فقد أحاطه رجال دعوته بهالة من التقديس جعلت الناس يؤمنون بأنه حقا المهدي وبأنه المعصوم. وفي هذا الإيمان به كمنت قوته كلّها إذ بدون ذلك الإيمان ما كان ليستطيع عمل شيء بل إن قوة الموحدين كلّها ولدت سنة 515هـ عندما بايع الموحدون محمد بن تومرت مهديا معصوما.

ولعل نجاح المهدي في خطوته الأولى هذه هو الذي دفعه إلى اتّخاد الخطوة الموالية وهي تنظيم الأصحاب لتوجيههم نحو الهدف المرسوم وتسهيل عملية السيطرة عليهم ومراقبتهم وقد جاء تنظيمهم على شكل هيئات أوّلها أهل العشرة أو أهل الجماعة وهي أعلى هيئة في سلّم التنظيم الذي وضعه المهدي. والذي يهمنا من أمر هذه الجماعة هي المكانة التي كان يحتلها عبد المؤمن ضمن أعضائها. فالمصادر التاريخية تضع دوما في مقدمة هؤلاء الأعضاء عبد المؤمن بن علي.

6- تكوين عبد المؤمن العسكري ودوره في حروب المهدي مع المرابطين

إن الخطوات التي اتخذها المهدي كإعلان المهدية وتنظيم الأصحاب إلى جانب الحملة الإعلامية التي شنها ضد المرابطين والمتمثلة في التشنيع بهم والتشهير بعيوبهم ونعتهم بأقبح الصفات، كل ذلك كان تمهيدا للمواجهة الحاسمة معهم في ميدان الحرب والإقتتال. فبعد أن استكمل عدده وعدّته شرع في أعماله الحربية مبتدئا بالقبائل والقرى القريبة منه والدّاخلة في طاعة وولاء المرابطين منذ سنة 515هـ/1121م.

وقد جاء تفصيل هذه الوقائع عند البيذق بإسم الغزوات التي ذكر منها تسعة، وكان النّصر في أكثر هذه الغزوات والوقائع حليف المهدي بينما كانت تحيق به الهزيمة في البعض منها، أما القيادة فكان يتولّى أمرها بنفسه، ويشجع أصحابه على الحرب والصبر ويبدي من ضروب الإقدام والتصدي الشيء الكثير حتى تعرض إلى السقوط في بعض الأحيان وإلى جروح السيوف.

وبعد ثلاث سنوات من الإقامة في إيجلي انتقل المهدي إلى مدينة جبلية منيعة هي تينملل ويعتبر هذا المعقل الذي لجأ إليه المهدي في غاية الحصانة ووعورة المدخل فكان ذلك معينا له على الانتصار على أي قوة مرابطية توجه إليه.

وقد جاء وصف الحصانة المكانية ومنعة هذه المدينة عند صاحب الحلل الموشية على النحو التالي: "ولا يعلم مدينة أحصن من تينملل لا يدخلها الفارس إلا من شرقها أو من غربها فأما غربها وهو الطريق إليها من مراكش فطريق أوسع ما فيه أن يمشي عليه الفارس وحده موسعا واضيقه أن يترل عن فرسه خوفا من سقوطه، وكذلك شرقا لأن الطريق مصنوعة في نفس الجبل تحت راكبها حافات وفوقه حافات وفيها مواضع مصنوعة بالخشب إذا أزيلت منها خشبة لم يمر عليها أحد ومسافتها على هذه الصفة نحو مسيرة يوم"[28].

ولعل تحصن المهدي في هذا الموقع الجديد ووقوف أهله إلى جانبه مع ما اكتسبه من خبرة وجرأة في غزواته مع عمال المرابطين، كل ذلك دفعه إلى التلويح ببصره صوب مراكش عاصمة الدّولة ومركز السلطة الحاكمة للسيطرة عليها والإطاحة بنظامها، فراح يمهّد لذلك بالمواقع الصغيرة التي سبقت يوم البحيرة المشهور.

وما يعنينا من أمر عبد المؤمن في الغزوات والوقائع التي سبقت يوم البحيرة، فإنه لم يتخلّف مرة واحدة عن النضال فيها والمشاركة في إذكاء نارها كجندي محارب متحمس في صفوف رجال الدّعوة الموحدية. أما القيادة فلم يكن له من شأن فيها وهذا ما يفهم من المصادر التاريخية خاصة البيذق الذي سكت عن دور عبد المؤمن في هذه الغزوات، اللّهم إلاّ إشارة واحدة فقط وردت عنده في معرض حديثه عن الغزوة الرّابعة التي وقعت بين المهدي وجيش المرابطين في تيزي آن ماست حين قام ابن تومرت بتقسيم قواته إلى قبائل وأعطى لكل رئيس قبيلة علما فكان العلم الأبيض من نصيب عبد المؤمن الذي ترأس قبيلة جدميوة[29].

لقد ظل المهدي يحتكر لنفسه قيادة المعارك والغزوات مع المرابطين منذ بدايتها سنة 515هـ وإلى غاية سنة 524هـ وهي السنة التي عرفت آخر معركة في عهده وهي موقعة البحيرة التي جهّز لها المهدي جيشا عظيما بلغ أربعين ألفا وأمّر عليه أبا محمد البشير وسيره لغزو مراكش. وقد أبلت الجيوش الموحدية في أول المعركة البلاء الحسن فأبدت من ضروب البسالة

والشجاعة الشيء الكثير ولكن سرعان ما تحول هذا الانتصار إلى انكسار والحماس إلى هز منكرة وقتل القائد محمد البشير والعديد من جنده قدّروا بالآلاف، وفرّت فلول الموحـ تاركة مراكش إلى أغمات.

وقد يكون وراء انهزام الموحدين بهذا الشكل غياب المهدي عن قيادة المعركة لما له م تأثير في النفوس، وطول أيام الحصار لمراكش التي بلغت أربعين يوما، والآثار الوخيمة الـ خلفتها مذبحة التمييز وانكسار خواطر القبائل بسببها، هذا فضلا عن الغرور الذي أصا الجيش الموحدي واستخفافه بعدوه.

ولأوّل مرّة في معارك المهدي تشيد المصادر التاريخية بالدّور البطولي الذي أداه عبد المؤ في هذه الموقعة وكيف نجح في انقاذ بقية الجيش من هلاك محقق وفي ذلك يقول ابن القطا "وسيدنا ومولانا الخليفة الإمام أمير المؤمنين في هذه الأيام يتقدم أمامهم لبسالته ويبهره الأبطال لحماسته والسعد يقدمه والنصر يخدمه"، إلى أن يقول بعد أن دارت الدائرة على الموحدين "وانحاز باقيهم إلى التمنع بداخل البحيرة وأن خندقا عظيما سعته 30 ذراعا اعترض لسيدنا الخليفة الأول في طريقه فوثب به فرسه فعجب الموحدون لسعة الخندق وقوة الوثـ وثبات الخليفة على السّرج"[30] وعن دور عبد المؤمن في انقاذ بقية الجيش يقول ابن القطا "وتخلّص أمير المؤمنين مع الصابرين الباقين من أصحابه وأمير المؤمنين يتقدمهم ودفعوا على من كان وثب عليهم من الملثمين فانهزموا أمامهم وخلّوا لهم عن الطريق"[31].

أمّا عن دوافع تخلّي المهدي عن قيادة الجيش في معركة البحيرة واسناد أمرها إلى البشـ دون عبد المؤمن أفضل أتباعه، فإن المصادر التاريخية قد أغفلت ذلك، مع أن من غريب ـ صدر عن ابن تومرت حين بلغته أخبار هذه الهزيمة أن سأل عن عبد المؤمن بن علي وحـ دون غيره، فلما علم أنه سلم قال: "كأنه لم يمت أحد البركة في بقائه وكأنكم بالفتح".

وقد أعطى عبد الله علي علاّم تفسيرا لهذا الموقف يحتمل عدّة أوجه منها ما رآه المهدي من صفات المكر والدهاء والخديعة في البشير وهي الأوصاف التي لم يكن قد اكتشفها المهدي في عبد المؤمن بعد، ومنها أن يكون ذلك مكافأة له على ما قام به في عملية التمييز الوحشية أو أن المهدي راعى اعتبار السّن أو المستوى العلمي[32].

ويبقى الإحتمال الأقرب إلى الصواب هو أن عبد المؤمن لم يكن قد اكتسب بعد من الواصفات العسكرية والخبرة الكافية التي تؤهله لقيادة جيش بحجم جيش موقعه البحيرة. كما أنه من المحتمل أيضا أن يكون المهدي قد فضل عدم المغامرة بحياة عبد المؤمن الذي كان يعده لما هو أعظم وهو أمر الخلافة وضحى بالبشير الذي كان يعتبره المنافس القوي لعبد المؤمن.

وأيا كان وضع عبد المؤمن العسكري في وقائع ومعارك المهدي مع المرابطين فإن مدّة العشر سنوات(515 – 524هـ) التي قضاها في مدرسة ابن تومرت الحربية يتمرّس على فنون الحرب والاقتتال كانت بمثابة التجربة الحية والدرس العملي الذي أهله إلى أن يصبح بعد وفاة المهدي في ميدان الحروب من أعظم قواد عصره وأشدهم فروسية وأوفرهم شجاعة واقداما وأبصرهم بطرئق الحرب وأساليب القتال، وهذا ما أشادت به المصادر التاريخية.

7-وفاة المهدي وبيعة عبد المؤمن بالخلافة:

إن الهزيمة التي مني بها الجيش الموحدي في معركة البحيرة أمام المرابطين قد هاضت نفس المهدي وأثرت عليه فلم يعش بعدها إلاّ قليلا إذ توفي في رمضان سنة 524هـ/1130م وتذكر المصادر التاريخية أنّه ألقى خطابا قبيل وفاته اختلف مضمونه من مؤرخ لآخر. ومما ورد في رواية المراكشي أن المهدي ختم خطبته قائلا: "وقد اخترنا لكم رجلا منكم وجعلناه أميرا عليكم هذا بعد أن بلوناه في جميع أحواله من ليله ونهاره ومدخله ومخرجه واختبرنا سريرته وعلانيته وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعا مطيعا لربّه"[33].

وقد جاءت وفاة المهدي في ظروف صعبة من جرّاء هزيمة البحيرة وتداعياها فكانت الفكرة هي إخفاء نبأ الوفاة وهذا ما اتفق عليه ما بقي من أفراد أهل العشرة أو الجماعة التي نجوا يوم البحيرة وكان عددهم خمسة تشاركهم أخت المهدي أم عبد العزيز. واختارت هذه الجماعة عبد المؤمن خليفة لابن تومرت وبايعته بذلك وسمّيت هذه البيعة ببيعة السّر، وكان أفراد هذه البيعة، عبد المؤمن المبايع بالخلافة وأبو ابراهيم الهزرجي وأبو محمد وسنار وعمر أزناج وأخت المهدي وتغيب أبو حفص عمر إينتي.

وقد ذكر أغلب المؤرخين أنه لم يعلن عن وفاة المهدي إلاّ بعد مدّة وأن أمر الوفاة وبيعة عبد المؤمن السرية ظلّ مكتوما، وقد اختلفوا في تحديد هذه المدة بين قائل سنتين كابن أبي زرع، وثلاث سنوات كالبيذق وابن خلدون، وخمس سنوات كابن عذاري، وهناك من أشار إلى هذه المدة دون تحديد كابن القطان وصاحب الحلل الموشية. والثابت أن وفاة ابن تومرت قد كتمت عن الناس ولكن ليس من المنطقي أن تكون مدة طويلة كالتي ذهب إليها ابن عذاري مثلا. وقد صاحب الإعلان عن وفاة المهدي بيعة عبد المؤمن العلنية الثانية بعد بيعة السّر الأولى التي أعقبت الوفاة.

لقد كان أمر كتمان خبر الوفاة إجراء حكيما وخطة عظيمة خلّدها التاريخ لعبد المؤمن ودلّت على عبقريته وحنكته، إذ استطاع أن ينقذ بفضلها الدّعوة الموحدية من الهلاك والفناء وفوّت على المرابطين فرصة لا تعوّض، وسدّ عليهم ثغرة كانت أملهم الوحيد في استئصال شأفة الموحدين. وقد استغل عبد المؤمن مدّة الكتمان هذه في جمع صفوف الموحدين وتنظيمهم وأظهر في ذلك مهارة كبيرة ونجح في لم شعثهم وترتيب أمرهم.

أما عن العوامل التي كانت من وراء ترشيح عبد المؤمن لخلافة المهدي فيمكن إجمالها فيما يلي:

1- تفضيل المهدي لعبد المؤمن عن بقية أصحابه وتقريبه له وفي ذلك يقول صاحب الحلل الموشية: "ولما توفي المهدي تفاوض بقية أصحابه وهم أربعة فيمن يكون إمامهم بعده فوقع اتفاقهم على عبد المؤمن لما كانوا يشاهدونه من تعظيم المهدي له بمحضر أصحابه وجميع الموحدين ويقبل عليه ويستبشر بكلامه فاتفقوا عليه وقدّموه"[34]. وكان المهدي كثيرا ما ينشد هاتين البيتين إذا رأى عبد المؤمن:

تجمعت فيك أشياء خصصت بها   فكلنـــا بك مســـرور ومغتبط
فالسن ضاحكة والكف مانـــحة   والصدر متسع والوجه منبسط

2- عدم انتساب عبد المؤمن لقبيلة مصمودية كبيرة، هو الذي ساعده على بلوغ الرياسة فيهم، لأن القبائل المصمودية، ما كانت لترضى بأن يتزعمها شيخ من واحدة منها، فجاء اختيار عبد المؤمن حلا مقبولا من جميع هذه القبائل، وهذا ما أشار إليه ابن أبي زرع بقوله: "وأحبت كل قبيلة من قبائل الموحدين أن يكون الخليفة منها وألاّ يلي عليها أحد من غيرها فتنافسوا في ذلك وتحاسدوا، فاجتمع العشرة والخمسون وتآمروا بينهم وخافوا أن تفسد كلمتهم ويتفرّق جمعهم فاتفقوا على خلافة عبد المؤمن لكونه غريبا بينهم"[35].

3- موت نصف أفراد أهل العشرة في موقعة البحيرة مما عزّز موقع عبد المؤمن أكثر لتقلّد منصب الخلافة خصوصا البشير المنافس الأول لعبد المؤمن وما عرف عنه من مكر ودهاء ظهر بجلاء في تلك المذبحة الشنيعة التي عرفت بمذبحة التمييز والتي راح ضحيتها خيرة الشباب الموحدي.

4- اهتداء عبد المؤمن إلى فكرة كتمان خبر وفاة المهدي وعدم التسرع في إعلان بيعته بالخلافة لما قد ينجر عن ذلك من رد فعل سلبي من القبائل فكانت هذه المهلة فرصة ليأخذ الحيطة لنفسه.

5– توفر عبد المؤمن على المؤهلات اللازمة لخلافة المهدي الذي ما كان ليمنحه ثقته كلها لوثوقه من أنه يستطيع قيادة المصامدة من بعده إذ كان أوفر أصحابه مواهب إلى جا خصاله المتميزة كرجاحة عقله وهدوء طبعه وبعد نظره وسعة تصوره.

الهوامـــــش

1. ابو بكر بن علي الصنهاجي: كتاب أخبار المهدي بن تومرت. تحقيق حاجيات ش و ن ت الجزائر **1974**.ص**41.42**
2. عبد الله كنون: النبوغ المغربي بيروت: دار الكتاب اللبناني، **1961**، ص**96**
3. البيذق، أخبار المهدي. ص**37**
4. عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، دار الكتاب اللبناني. بيروت **1981**. م**6**. ص**467**
5. ابن الأثير: الكامل في التاريخ: دار الكتاب العربي، بيروت **1983**. ج**8**. ص**295**
6. ابن خلدون: كتاب العبر، م**6** ص**260**
7. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، دار المنصور، الرباط. **1972** ص **173**
8. ابن القطان:نظم الجمان، تحقيق محمود علي مكي.دار الغرب الإسلامي بيروت **1990**. ص**77**
9. ابن خلدون، المصدر السابق. م**6**. ص**467**
10. عبد الواحد المراكشي، المعجب، دار الكتاب. الدار البيضاء. **1978**. ص**267**
11. البيذق، أخبار المهدي. ص**44**
12. البيذق، نفس المصدر ص**45**
13. ابن خلدون، المصدر السابق، م**6**، ص**260**
14. عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت،دار الغرب الإسلامي.بيروت**1983**.ص**95**
15. البيذق، المصدر السابق ص**52**
16. ابن خلدون، المصدر السابق، م**6**، ص**468**
17. مجهول،الحلل الموشية،تحقيق سهيل زكار وزمامة.دار الرشاد.الدار البيضاء**1979**.ص**100**
18. ابن القطان، المصدر السابق، ص**197**
19. جولد سيهر،نقلا عن عبد الله عنان،عصر المرابطين والموحدين،ج**1**.ص**168**.ط**1964**
20. ابن خلدون، المصدر السابق، م**6**، ص**259**
21. ابن خلدون، المصدر السابق، م**6**، ص**259**
22. ابن الأثير، المصدر السابق، ج**8**. ص**294**

23- المراكشي، المصدر السابق، ص**270**

24- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص**203**

25- السلاوي الناصري،الاستقصا،دار الكتاب،الدار البيضاء**1954**.ج**2**.ص**112**

26- المراكشي، المصدر السابق، ص**275**

27- ابن القطان، المصدر السابق، ص**125**

28- مجهول،الحلل الموشية، ص**113**

29- البيذق، المصدر السابق، ، ص68

30- ابن القطان، المصدر السابق، ص160

31- ابن القطان، المصدر السابق، ص161

32 -عبد الله علي علام،الدولة الموحدية بالمغرب،دار المعارف،القاهرة 1968.ص97

33 -المراكشي، المصدر السابق، ص287

34 -مجهول، الحلل الموشية، ص143

35 -ابن أبي زرع ، المصدر السابق، ص184

محمد بن مصطفى بن الخوجة:
حياته وأفكاره (1865-1915)

أ. إبراهيم لونيسي*

لقد ظهرت في الجزائر مع أواخر القرن التاسع عشر العديد من الشخصيات الفكرية والأدبية، لعبت أدوارا هامة في إثراء الحياة الثقافية الجزائرية بكتاباتها الكثيرة والمتنوعة، وبذلك تكون قد ساهمت بفعالية في صنع النهضة الجزائرية الحديثة والمعاصرة. ومن أبرز هذه الشخصيات محمد بن مصطفى بن الخوجة. فمن هو هذا الشخص ؟ وما هو الدور الذي لعبه في إثراء الحياة الفكرية و الثقافية الجزائرية؟

من هو محمد بن مصطفى بن الخوجة؟

ولد في مدينة الجزائر سنة 1865، أي في السنة التي قام بها الإمبراطور نابليون الثالث بزيارته الثانية إلى الجزائر، وتلقى ابن الخوجة تعليمه في مدينة الجزائر، وهو تعليم ديني ودنيوي، وهو ما سيتضح لنا جليا من خلال تناولنا لبعض كتاباته بالدراسة والتحليل.

وابن الخوجة لم يغادر القطر الجزائري إطلاقا، كما أنه تقلد مناصب عديدة منها توليه عضوية

---

*أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية- قسم التاريخ بجامعة جيلالي اليابس- سيدي بلعباس.